



النظام السوري نظام غير إنساني، لا يعرف رحمة ولا شفقة، لا يعرف خلقاً ولا أدباً، لا يعرف عهداً ولا ميثاقاً، بدأ نظامه بسيولٍ من الدماء في ساحات دمشق، ثم ملأ السجون بكلِّ الأحرار من السياسيين والعسكريين ثم نسيهم وراء القضبان. حول المدارس إلى شعارات تقدس شخص الرئيس لا غير، حول النقابات العمالية جميعها إلى الصداح صباح مساء باسم حامي سورية فخامة الرئيس، حول الجيش والقوات المسلحة إلى ذاكرتين ومسبحين –ليس لله– ولكن لشخص الرئيس... حول كلَّ شيء في البلد إلى الرئيس، فهو المعلم الأول، والعامل الأول، والفلاح الأول، والجندي الأول... وهكذا دواليك.

ثم حول النظام السوري عناصر الحزب القائد –زعموا– إلى عيونٍ تنقل أخبار الناس، وأحاديثهم ومناقشاتهم إلى الجهاز المقدس الموحد في البلد (المخابرات). فإذا قال معلمٌ في مدرسة رأياً في مسألة اجتماعية أو اقتصادية فضلاً عن السياسية، هبَّ الرفاق الحزبيون زرافاتٍ ووحداناً إلى أوليائهم من الفروع المخابراتية لإعلامهم بوجود مواطن له رأي ما غير رأي الحزب القائد. ثم تتوالى هذه الأجهزة الأمنية المخابراتية عملية جرَّ هذا المواطن إلى مكاتب التحقيق، ليلاقي هناك السباب والشتائم والتهديدات... فإن عاد المعلم إلى تكرار إبداء آرائه في القضايا الحياتية جُرَّ جرًّا شديداً، ورمي في الزنازين إلى أجل غير مسمى، ثم لا يتجرأ أهله أن يسألوا عنه... إنما ينتظرون الفرج من الله.

هكذا يعيش الشعب السوري... وممَّا يلاحق الشعب السوري دائماً، ويطارده في يقظته وفي منامه، في ليله وفي نهاره، ما رأى وسمع من مجازر وقتل وانتهاك وإذلال لكثير من أبنائه، بل والكثير من جيرانه في لبنان وغيرها.

هل تغيبُ عن الذاكرة السورية مجررةُ حماة واستباحة المدينة بعد تدميرها، ومجزرةُ جسر الشغور وما حصل فيها من قتل واعتقال وهدم للمنازل، ومجزرةُ حي المشارقة في حلب حيث دفنتها القتلى بالجرافات في مقابر جماعية، وما حصل من مجازر في اللاذقية ودمشق وغيرها في أرجاء البلاد، وهل تغيب عنها مجررةُ تدمر وما حصل فيها من تعذيب قتل للسجيناء على يد السفاح رفعت الأسد... وغيرها وغيرها.

بل هل تغيب عن الذاكرة السورية مجازر النظام في دول الجوار، كما حصل من حصار ودك لمدينة طرابلس عاصمة أهل السنة في لبنان، حيث عمل النظام بالتعاون مع مليشيات الحي النصيري في (بعل محسن) لتصفية شباب ورجال أهل طرابلس. ومجزرة تل الزعتر حيث قام بقتل أكثر من سبعة عشر ألفاً من الفلسطينيين في هذا المخيم هدية إلى أسيادهم في تل أبيب.

واليوم ثار الشعب السوري والذاكرة أرقَّةً مُتبعةً بأحداث الماضي ومخاوف المستقبل، ثار الشعب السوري على استحياء – أو قل على خوف – منادياً: حرية حرية. فلم يتعرَّض لحاكمه المستبد بكلمة ناقدة، ولا إشارة لامْزَة، فكانت المجازرُ الكبيرة

رَدَ النَّظَامُ، وَكَانَ الْحَقُّ وَالْكَرْهُ الْأَسْوَدُ بَسْمَتَهُ وَوِجْهِهِ، فَرَاحَ يَقْابِلُ (حَرِّيَّةَ حَرِّيَّةَ... الشَّعْبَ يَرِيدُ كَرَامَةَ... )، قَابِلَ هَذَا بِالْطَّلَقَاتِ النَّارِيَّةِ الْمُرَكَّةِ إِلَى الرَّأْسِ أَوِ الصَّدْرِ... فَيَسْقُطُ الْمُوَاطِنُ أَرْضًا كَمَا يَسْقُطُ الطَّائِرُ مِنْ رَمِيمَةِ الصَّيَّادِ.

وَإِذَا بِذِاكْرَةِ الشَّعْبِ السُّورِيِّ تُعِيَّدُ لَهُ ذِكْرِيَّاتِ حَمَّةِ وَجْسِرِ الشَّغُورِ... تَعُودُ لَهُ بِذِكْرِيَّاتِ الرَّئِيسِ الْأَسْدِ الْأَبِ الَّذِي سَفَكَ الدَّمَاءَ مَعَ أَخِيهِ رَفِعَتْ وَأَعْوَانَهُ... تَعُودُ بِصُورَةِ الْأَسْدِ الْأَبِ وَأَخِيهِ مَاهِرٌ وَمَنْ وَالْهَمَا مِنِ الْعَصَابَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ. عَادَتْ وَلَكِنَّهَا تَوَسَّعَتْ لِتَشْمِلُ سُورِيَّةَ كُلِّهَا مِنْ دَرْعَا جَنُوبًا إِلَى حَمْصَ وَالرَّسْتَنَ وَتَلِبِيَّسَةَ... وَسَطَ سُورِيَّةَ إِلَى إِدْلِبَ وَحَمَّةَ شَمَالَ غَرْبِ الْبَلَادِ إِلَى دِيرِ الزُّورِ وَالْبُوكَمَالَ شَمَالَ شَرْقِ الْبَلَادِ... وَالنَّزِيفُ هُنَا وَهُنَاكَ.

عَادَتْ لِيَظْهُرُ الْحَقُّ الْكَبِيرُ مِنْ هَذَا النَّظَامِ إِلَى شَعْبِهِ مَرَةً أُخْرَى. ظَهَرَ فِي صُورَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا: تَعْذِيبُ الْأَطْفَالِ حَتَّى الْمَوْتِ، وَقَدْ رَأَيْنَا مَا فَعَلُوا بِحَمْزَةِ الْخَطِيبِ، وَهَاجَرَ الْخَطِيبُ، وَثَامِرُ مُحَمَّدِ الشَّرِيعِيِّ... وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ خَلَعَتْ كَتْفُ الْطَّفَلِ ثَامِرُ، وَقَلَعَتْ أَسْنَانُهُ، وَقَطَعَ شَيْءٌ مِنْ لَحْمِ وَجْهِهِ... ثُمَّ سُلِّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِهِ. وَمِنْهَا إِهَانَةُ مِنْ وَقْعِ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَكْلِهِ عَلَى وَجْهِهِ بِالْأَرْجُلِ، مَعَ الدَّهْسِ وَالدَّوْسِ عَلَى ظَهُورِهِمْ وَبَطْوَنِهِمْ وَصُدُورِهِمْ، وَاسْتَهْقَارِهِمْ وَالسُّخْرِيَّةِ بِمَطْلَبِ الْحَرِيَّةِ الَّتِي يَنَادُونَ!

أَصْبَحَتْ صُورَةُ النَّظَامِ الْبَعْثِيِّ فِي أَذْهَانِ الشَّعْبِ السُّورِيِّ خَلِيلًا مِنَ الْقَتْلِ وَالْتَّصْفِيَّةِ وَالْتَّعْذِيبِ وَالْوَحْشِيَّةِ وَالْإِهَانَةِ وَالسُّخْرِيَّةِ، لَا لِأَعْدَاءِ الْأَرْضِ وَالْوَطَنِ مِنَ الْخَارِجِ، بَلْ إِلَى أَبْنَاءِ الشَّعْبِ... لَذَلِكَ لَا غَرَابَةَ مِنْ هَرُوبِ الْأَلَافِ إِلَى خَارِجِ الْبَلَادِ مِنْ دَرْعَا إِلَى الْأَرْدَنِ، وَمِنْ تَلْكُخَ إِلَى لَبَّانَ، وَمِنْ إِدْلِبَ إِلَى تُرْكِيَا... لَا هَرِبَّا مِنْ حَرْبِ أَهْلِيَّةِ قَائِمَةٍ، وَإِنَّمَا مِنْ جِيشٍ كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ حَمَيَا الشَّعْبِ وَبَذَلَ الْأَرْوَاحَ فِي صِيَانَةِ حَرِيَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ.

هَذِهِ أُمُّ الشَّهِيدِ دَاؤِدُ الشَّيْخِ مِنْ أَهَالِي جَسِرِ الشَّغُورِ لَمْ تَسْتَطِعْ ذَاكِرَاتِهَا أَنْ تَفْصِلَ بَيْنَ أَحْدَادِ الْمَاضِيِّ وَآلَامِ الْحَاضِرِ وَمَخَاوِفِ الْمُسْتَقْبِلِ، وَقَفَتْ عَلَى جَثَمَانِ ابْنَاهَا شَهِيدِ الْحَاضِرِ لِتُرْبِطَهُ بِأَبِيهِ -زَوْجِهَا- شَهِيدِ الْمَاضِيِّ... وَكَلَاهُمَا مِنْ ضَحَايَا النَّظَامِ الْبَعْثِيِّ. وَقَفَتْ لِتَعْطِيِ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ دَرُوسًا فِي الإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ، وَالْتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَالْإِرْتِبَاطِ الْقَوِيِّ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَفَتْ وَيَا أَرْوَعَ مَا وَقَفَتْ! وَقَفَتْ وَيَا أَعْذَبَ مَا نَطَقَتْ بِهِ شَفَّاتُهَا مِنْ كَلْمَاتِ الصَّبَرِ وَالثَّقَةِ وَالْعَزَّةِ وَالْيَقِينِ بِاللَّهِ -تَعَالَى-!

فَهُلْ نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ الْعَمَلِيِّ مِنْ أَمِّنَا أُمِّ الشَّهِيدِ دَاؤِدِ الشَّيْخِ؟! أُمُّ هُلْ نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الصَّفَاءِ الرُّوحِيِّ، وَالْقَلْبِ الْمُلِئِ بِمَحْبَّةِ اللَّهِ وَالرَّضَا بِقَضَائِهِ، وَالْتَّعْلُقُ بِمَا وَعَدَ مِنْ مَعِيَّةٍ وَنَظْرَةٍ وَعَطَاءٍ لِأَحْبَابِهِ الصَّادِقِينَ؟!

**فَهُلْ يَمْكُنُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَعُودَ الْحَيَاةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلشَّعْبِ السُّورِيِّ فِي ظَلِّ حُكُومَةِ عَدُوِّهَا الْوَحِيدِ هُوَ شَعْبُهَا السُّورِيِّ؟**

لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا وَأَنَا فِي بَلْدِي -سُورِيَّة-. أَفْقَدَ كُلَّ طَمَانِيَّةٍ أَوْ سَكِينَةٍ إِذَا مَا رَأَيْتُ سِيَارَةً أَوْ مَجْمُوعَةً مِنِ الْعَنَاصِرِ الْأَمْنِيَّةِ، سَوَاءً كَانُوا مِنَ الشَّرْطَةِ الْمَدِينِيَّةِ أَوِ الْعَسْكَرِيَّةِ أَوِ شَرْطَةِ الْمَرْوَرِ أَوِ مِنْ حَفْظِ النَّظَامِ. أَمَّا رَؤْيَايَةِ دُورِيَّاتِ الْأَمْنِ السِّيَاسِيِّ أَوِ الْعَسْكَرِيِّ أَوِ أَمْنِ الدُّولَةِ فَإِنَّهَا تَفْقِدُ كُلَّ شَيْءٍ يَحْسُسُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ صَفَاتِهِ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لَهُ، وَلَا أَنْسَى وَأَنَا عَائِدٌ يَوْمًا إِلَى مَنْزِلِي بَعْدَ زِيَارَةً لِأَقْرَبِيَّ فِي قَرْيَةِ مَجاوِرَةٍ، إِذَا أَوْقَفْتُنِي سِيَارَةُ أَمْنِيَّةٍ فَلَمَا رَأَوْا السِّيَارَةَ فَارَغَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَوَالِدِي وَزَوْجِي وَبَعْضِ مِنْ أَوْلَادِي صَرَخَ أَحَدُ الْعَنَاصِرِ بِكُلِّ أَدْبٍ وَلَطْفٍ قَائِلًا: "انْقُلْ وَلَاكِ كِرْ". فَانْطَلَقَتْ وَأَنَا مَسْرُورٌ بِالنَّجَاهَةِ، وَتَنَاسَسَتِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْ سَبِّ مَقْذِعٍ وَجِهٍ إِلَيْهِ (انْقُلْ... وَلَاكِ... كِرْ)... ! وَكُمْ يَسْمَعُهَا أَلْفَ السُّورِيِّينَ مِنَ الشَّبَانَ وَالشَّبِّيَّانَ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُتَفَقِّينَ مِنْ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقَالُ لَهُمْ (الْأَمْنِ).

لَقَدْ عَرَفْنَا وَعَرَفَ الشَّعْبُ السُّورِيُّ كُلَّهُ أَنَّ هَذَا الْأَمْنَ بِكُلِّ فَرْوَعَهِ لَمْ يَوْضُعْ لِحَفْظِ الْأَهَالِيِّ وَمَصَالِحِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَمَمْتَكَاتِهِمْ إِنَّمَا وَضَعَ لِحَمَايَةِ شَخْصِ الرَّئِيسِ وَانْتِهَاكَ حَرَمَاتِ الشَّعْبِ كُلِّهِ.

**وَالْيَوْمِ مَاذَا عَلَيْنَا نَحْنُ شَعْبُ السُّورِيِّ؟**

عَلَيْنَا أَلَا نَطْمَسْ أَعْيُنَنَا عَنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي نَرَاهَا تَنْتَقِلُ مِنْ بَلْدٍ إِلَى بَلْدٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، فَالنَّظَامُ الْبَعْثِيُّ سِيَظْلِي يَنْتَقِلُ إِلَى أَرْجَاءِ الْبَلَادِ مَقْتَلًا وَمَعْتَقِلًا وَمُذْلًا لِأَبْنَاءِ هَذِهِ الشَّعْبِ، حَتَّى يَخْضُعَ الشَّعْبُ وَيَذَلَّ كَمَا ذَلَّ أَرْبِيعَنِ سَنَةَ فَائِتَةَ.

علينا أن نهُبَ جميًعاً، في كلِّ مدينة، وكلِّ حيٍّ، وكلِّ قرية، وكلِّ منزلٍ ضدَّ هذا النظام السرطاني البعثي حتى يتم اقتلاعه من جذوره، لا ندعه يرتاح لحظةً، ولا يُعطي فرصةً لإعادة تنظيم أموره، خاصةً وقد بدأُ أحرار الجيش يعلنون انشقاقهم عن هذا الجيش الذي وجَّه نيرانه إلى الشعب الأعزل. فهُيَّا جميًعاً، هُيَّا شباباً، هُيَّا كهولاً، هُيَّا شيوخاً، هُيَّا أطفالاً، هُيَّا نساءً، هُيَّا إلى الصدُّع والنداء: الشعب يريد إسقاط النظام.

علينا حماية الفارِين من أماكن الاعتقال والتعذيب ومساندتهم بكلِّ ما أوتينا من قوَّة، وألا نفَرِّ براحتنا على حساب حياة إخواننا في طول البلاد وعرضها.

علينا أن نستغلَّ طاقاتنا كلَّها، أنسٌ في التصوير والتوثيق، وآخرون في الاتصال بالقنوات وإعطائهما الأخبار ممَّن يتميَّزون بالقوة والذكاء والحنكة السياسية، وآخرون يحمون المتظاهرين من الشبيحة وغيرهم.

علينا أن نحقِّق المعاني والأخلاقيات والروابط العظيمة التي جاءت في حديث الرسول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((لا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَنَاجِشُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا، وَلَا تَدَأْبُرُوا، وَلَا يَبْعِثْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بَعْضُ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَّا - ويشير إلى صدره ثلاثة مرات - بحسب امرئٍ من الشَّرِّ أنَّ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمُ، كُلُّ الْمُسْلِمٍ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)) رواه مسلم.

علينا أن نثق بربِّنا، ونحسن التوكل عليه، ونعلم يقيناً أنه معنا، لأننا المظلومون، والمقهورون، ولنعلم أن المعية الإلهية هي خير مطلب، وأعظم مجتني: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالْعُلُوِّ أَمْرٌ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}. ولعله يا أحبتي يكفيانا قوله - تعالى - : {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا}. والله أعلم، وصلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَلِهٖ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

المصادر: